السفير البريطاني الأسبق يكتب شهادته حول سقوط صنعاء ويكشف تفاصيل من محطات الأحداث والمفاوضات (٢-٢)

الأمناء/ إدموند فيتون بـراون/ مجلة Long War Journal:

كان وفـد الحوثيين يضـم كبار الشخصيات الحقيقيين الذين ما زالوا يشـغلون مناصب مهمة في الحركة حتى يومنا هـذا، ولكن لا بد لي من تسجيل تأملات أحد الساسة اليمنيين المحترمين، عبد الكريم الإرياني، الذي كان موته أثناء فترة عملي في اليمن بمثابة مأسـاة نهايـة عصر، وفي حديثـه عن مهدي مشـاط، العضو الأكثر إزعاجاً وتدميراً في الوفد، قيل إن الإرياني علق بأن تفضيل المشاط من قبـل الحوثيين لـدور كبير في تلك الأيام كان بمثابة إشـارة منه – للإرياني – للرحيل والموت.

لقد نشأ المشاط في صعدة كرجل بلطجي عديم الجدارة، ومن المصادفة أنـه كان في دائرة عبد الملك الحوثي، ومـن الواضح أن هـذا مؤهل كافٍ للارتقـاء إلى مناصـب عاليـة في الإدارة الفعلية، التي يتمتع الآن بلقب "رئيس".

ولكننـا واصلنا العمـل، واقتربنا أكثر فأكثر مـن التوصل إلى اتفاق، وكان عبد السـلام، الذي لا يزال كبير المفاوضـين الحوثيـين والمتحدث باسـمهم حتـى يومنا هـذا، جاداً بشأن محادثات الكويت، وكسب ثقة السـعوديين، وبدأت ملامح الاتفاق تتشـكل حيث يحتفـظ الحوثيون بمعظم مقاليد السـلطة في اليمن، وتنسحب المملكة العربية السعودية بكرامة، وسوف يتم تهميش الرئيس هادي، لكـن مفاوضيـه أدركوا أن السعوديين وغيرهم لن يدعموهم في معارضة هذه النتيجة.

وعندما اعتقدنـا أننا توصلنا إلى اتفاق، تغيرت التعليمات من صعدة، وقيـل إن عبد الملـك كان غاضباً من "تنـازلات" عبد السـلام المزعومة، وانسـحب الحوثيـون، وتجمـدت محادثات السلام لسـنوات. وكانت العواقب وخيمة، وكثير منها مؤسف:

1. عـلى مدى السـنوات الثماني التالية، لم تتحرك خطوط القتال بقدر ما حدث في الفـترة 2016-2014، لكن اليمن عانى من خسـائر بشرية وأضرار مروعة، فإلى جانب صنعاء، تعرضت مـدن متنـازع عليها مثل الحديدة وتعز ومأرب للدمار، وتقدر الأمم المتحدة أن انعدام الأمن الغذائي الحاد يؤثر على ملايين اليمنيين.

2. بطبيعـة الحـال، كان تركيز المجتمع الدولي على صنع السـلام، كما كان تركيزي، وقـد حد هذا من شـهية وصف الحوثيين بالجماعة الإرهابية حتى تسـببت هجماتهم المتزايدة خارج حدود اليمن في تحول في الرأي العـام، في المراحل الأولية من توسيع حملتهم، حاول الحوثيون بشكل أسـاسي ضرب أهداف بعيدة داخـل المملكة العربية السـعودية، مع نجاح عرضي فقـط، وفي أوائل عـام 2021، في وقـت انتقال إدارة ترامب إلى إدارة بايدن في واشـنطن العاصمة، صنفـت الولايات المتحدة الحوثيين لأول مـرة كإرهابيين في يناير، ثم تم رفع التصنيف في فبراير، ولكن عندما نفـذ الحوثيون هجوماً قاتلاً بطائرات بدون طيار وصواريخ عـلى أبو ظبـي في يناير 2022، اسـتخدمت الإمارات العربية المتحدة بمهارة موقفهـا المؤقت في مجلس الأمـن لتأمين القـرار 2624، الذي صنف الحوثيين كمجموعة إرهابية لأول مرة من قبل الأمم المتحدة.

3. كان هـذا هـو الوضـع في السـادس من أكتوبر/تشرين الأول 2023، ولكن الآن تغير السـيناريو بشكل كبير، فقد شرع الحوثيون في برنامجهم المتهور لمهاجمة الشـحن في البحر الأحمر وباب المندب – وكان تسامح الولايات المتحدة وغيرها من الدول مع مثل هذه الأعمال العدوانية يتجـاوز نقطة الانهيـار، إن طريق الشـحن عبر قناة السويس والبحر الأحمر حيـوي للاقتصـاد العالمي، والمخاطر المتمثلة في اضطرار كميات كبيرة من الشحن إلى التحول إلى أجل غير مسـمى حول الطرف الجنوبي لأفريقيا لها آثار عالمية على التجارة والتضخم.

لقـد كان مقتل عـشرة حوثيين وإغراق ثلاثـة مـن قواربهم على يد البحريـة الأميركيـة في أواخر ديسمبر/كانون الأول بمثابة رسالة واضحة للحوثيين وإيران مفادها أن هذا العدوان لن يُسمَح به، ومع ذلك، فقد أصروا عـلى مواصلة عدوانهم، مما أدى إلى صدور قرار من مجلس الأمن التابـع للأمم المتحـدة يدين أفعالهم، وأخيراً سلسلة من الضربات الأميركية والبريطانية الاسـتباقية على مواقع أساسية لقدرة الحوثيين على شـن المزيد من الهجمات، وقد اسـتمرت جهود فرض القانون ضد الحوثيين، لكنهـا لم تنجح بعد في ردع أو منع المزيد من الهجمات، على الرغم من أن بعض المحللين يقولون إن قدراتهم قد استنفدت.

4. بالإضافـة إلى الحوثيين، فقد ادّعت إيران علناً لنفسـها الحق في التدخل في سـلامة الشحن الدولي في البحـر الأحمـر ومعارضة أي جهـود دولية لتأمينـه، ويُعتقد أن سفينة التجسس الإيرانية "بهشاد" كانت تتـولى توجيه بعض هجمات الحوثيين، ومع ذلـك، فإن مثل هذه الأصول البحريـة الإيرانية معرضة بشـكل محتمل للتدخـل من جانب الولايات المتحدة والمملكة المتحدة.

5. ومن المثـير للاهتمام أن الأمم المتحدة أعلنت في أواخر ديسـمبر/كانون الأول عن "خطوة مهمة" نحو وقف إطلاق النار في اليمن، واحتفل مبعـوث الأمم المتحدة بهـذا التقدم المفترض دون الإشـارة إلى هجمات الحوثيين على الشحن الدولي، وربما كان هذا التلميح الحوثي إلى التقدم نحو وقف إطلاق النـار ومحادثات السـلام خطوة محسوبة لاستغلال رغبة المجتمع الدولي الراسـخة في السلام في اليمن، وجعل اتخاذ إجراء حاسـم ضد الحوثيين وإيران أكثر صعوبـة عندما يمكـن اعتبار ذلك تقويضاً لهذه الآفاق.

إن السعوديين يريدون الخروج من حرب يشعرون أنهم محاصرون فيها منذ سـنوات، وقد ذهبوا مؤخرًا إلى حد الضغط على الحكومة الشرعية في اليمـن للتراجع عن تحدي وضع البنوك في صنعاء، عـلى الرغم من أن مثـل هـذه المؤسسـات المالية، بحكم التعريف، تمثل عملاء لتمويل الإرهـاب. يريد المجتمـع الدولي أن يرى تخفيف الاحتياجات الإنسـانية في اليمن، وهو يعلـم أن الحوثيين سيسـتمرون في اسـتغلال الأزمة الإنسـانية اليمنية كسـلاح لتعزيز مصالحهم، كل هذا يثير السؤال: هل من الممكن السـعي إلى السلام في اليمن والردع في البحر الأحمر وباب المندب؟

6. تشـير الإجـراءات الأميركية الأخيرة، بما في ذلك تشـكيل تحالف مع المملكـة المتحـدة ودول أخرى لمواجهة العـدوان الإيراني والحوثي، إلى أن هـذه سـتكون الأولويـة، وبالفعل، يجب أن تكـون كذلك، إن حق الشـحن في عبور طرق الملاحة الدولية سـلمياً أمر راسخ ولا بد من تعزيزه، إن الحوثيين ليسوا حكومة معترف بهـا، ومهاجمتهم بشـكل متناسب ليس عملاً من أعمال الحرب ضد اليمن — والواقـع أنه لا يوجد سـبب يجعل قيادتهـم معفاة من الاستهداف، أكثر من قيادات تنظيم الدولة الإسلامية، أو تنظيم القاعدة.

إن الإشـارة إلى الحوثيـين بأن التحدي الذي يواجههم صعب للغاية، وقبولهم التحدث عن السلام بعد تسع سنوات من وحشية الشعب اليمني، يكفـي في حد ذاتـه لتأمين حرية لهم للانخراط في الابتـزاز الدولي، وهذا يعني في الواقع الاستسـلام لهم، وليس هناك ما يضمن أن تؤدي محادثات الأمم المتحدة الجديدة إلى أي شيء — لذا يمكن إخبار الحوثيين بأن هذه المحادثـات موضع ترحيب من أجل مصلحتهم الخاصة، ولكنها لا تتعلـق بإنفاذ القانـون البحري، وأنهم سيواجهون عواقب وخيمة إذا استمرت هجماتهم.

إن الشرط الوحيد هنـا هو أن لا يؤدي العمـل الحـركي إلى إلحاق الضرر بالبنية الأساسـية الحيوية على الساحل اليمني، وخاصة ميناء الحديدة، الذي يشكل ضرورة أساسية للعمليـات التجارية والإنسـانية التي تعتمد عليهـا رفاهة العديد من اليمنيين، ولكن ينبغـي لنا أن ننظر مرة أخرى إلى مدى تحويل الحوثيين للمساعدات الإنسـانية واستغلالها، وينبغـي لنا أيضا أن نشـير إلى أن الحوثيين أنفسهم يهددون اليمنيين بالمجاعة من خلال ردع السـفن عن الاقتراب مـن الحديـدة، ويفرض الحوثيون ضريبة على المسـاعدات الإنسـانية التي تدخل الأراضي التي يسيطرون عليها من أراضي الحكومة الشرعيـة في اليمن، ولكن هذا ليس في حد ذاته سببا كافيا لرفض فكرة تحويـل المزيد من المسـاعدات عبر عدن وغيرها من الموانئ التي تسيطر عليها الحكومة الشرعية في اليمن.

كما ينبغي لي أن أضيف أنه خلال فترة عملي كسـفير، كانـت هناك سلسلة لا نهاية لها من الحوادث التي اتُهمت فيها إيران بتسليح الحوثيين، وكان هذا الوضـع يُنكر دائما، وكان مـن الصعب الحصـول على إجماع دولي بشـأنه، على الرغم من وجود أدلة قوية، وكان هناك أيضا المعاملة بالمثل: أثناء تقدم الحوثيين عبر اليمن في عـام 2015، رأيناهـم يعطون الأولوية لإطلاق سراح السجناء الذين تهمهم إيـران، ولا شـك في الدعم الفني والمالي واللوجستي الذي يتمتع به الحوثيون من إيـران وحزب الله اللبناني، والآن، نرى هذا بوضوح في دعم إيران للعدوان الحوثي في البحر الأحمر، بما في ذلك مع بهشاد، وهذا يقودني إلى النقطـة الأخيرة، الفيل في الغرفة: عند أي نقطة نحمل إيران المسـؤولية المباشرة عن الحرب غير المتكافئة التي شنتها علينا؟

ولم تصبح المسـألة حادة بسبب أي عمل حـوثي، بل بسـبب مقتل جنود أميركيـين في الأردن بهجوم بالوكالـة الإيرانية، ورفعـت إدارة بايدن الرهانات مرة أخرى، فضربت مجموعة من الأهداف المرتبطة بإيران في العراق وسوريا بالإضافة إلى شن المزيد من الضربـات على الحوثيين، ولكن مع اسـتمرار وكلاء إيران في شـن هجماتٍ معادية لأمـيركا — وخاصـة إذا قتل المزيد مـن الأفراد الأميركيين — فإن الولايات المتحدة لم يعد أمامهـا خيار قبل أن تضطر إلى فرض عواقب مباشرة على إيران. وقد تساءل الناس بالفعل عن سبب عدم إغراق بهشاد.

ويشير سلوك إيران في الماضي إلى أن إرسال رسالة لا لبس فيها ولكنها متناسـبة لا ينبغي أن يـؤدي إلى تصعيد إيراني متهور، وإيران طرف عاقل، على سـبيل المثال، في أواخر ديسمبر/كانون الأول، نشرت الهند سفناً لتحذير إيران من أي تعطيل آخر لممرات الشـحن في المحيط الهندي، وتراجعت إيران.

إننا نتردد في الدعـوة إلى العمل العسكري، ولكن يبدو الآن من الممكن أن تستمر إيران ببساطة في التصعيد حتى تضطر إلى التراجع في مواجهة رد أقـوى، ولن تعيد إيران حسـاب شـهيتها للمخاطـرة إلا إذا واجهت الآن عقوبات شديدة ومستهدفة على عدوانها، إلى جانب رسـالة واضحة مفادها أنه سـيكون هناك المزيد في المستقبل إذا لزم الأمر.

ومن المأمول بشـدة أن يكون الرد الأميركي الحالي، بإرسـال الأصول العسـكرية إلى المنطقة، كافيا لردع إيران وحزب الله والميليشيات العراقية والحوثيين عن المزيـد من التصعيد، ولابد أن يكون الاستنتاج المبدئي هو أن إيران تظـل لاعبا عقلانيا، ولكنها لم تواجـه بعد عواقـب وخيمة بما يكفي للتراجع عن حملتها المستمرة ضد إسرائيل والمصالح الغربية، ومن الضروري إعادة إرساء الردع إذا كنا لا نريد أن نتعثر في حرب إقليمية.

إدموند فيتون براون هو مستشار أول لمشروع مكافحة التطرف، عمل سابقاً سـفيرًا لبريطانيا في اليمن، ومنسقاً لفريق مراقبة مجلس الأمن لتنظيم الدولة الإسـلامية والقاعدة وحركة طالبان.